المجتمع الامريكي في أدب " تنسي وليامز"

الدكتور محمود الخير
أستاذ مساعد في
جامعة تشرين

يهدف هذا البحث الى التعريف بالبعد الاجتماعي الذي يشكل محورا رئيسا تدور حوله معظم أعمال الكاتب المسرحي الأمريكي " تنسي وليامز " ، ويبين أن وليامز يعالج قضايا الإنسان في وسط غابت عنه القيم الاجتماعية وانتفت منه القيم الروحية والأخلاقية . فالمجتمع الأمريكي ، كما يقول وليامز ، مسؤول مباشرة عن التوازن المفقود في شخصية الأمريكي فنانا ، وأمريكيا ، وانسانا عالميا .

ان الدراسة الجادة لأدب " تنسي وليامز " تؤكد أنه يعالج الصراع الاجتماعي داخل امريكا على مستويات ثلاثة : الشخصي والامريكي والانساني . فلمّا غابت هذه المستويات عن أي عمل ، غير أن أحدها يمكن أن يأخذ مكان الصدارة في بعض الأعمال . ويبدو لي أن هذا التركيز الثلاثي هو الصيغة الأساسية لفن هذا الكاتب الكبير . فهذه هي الطريقة التي يكتب بها " وليامز " .

هكذا يرى ، وهكذا يخلق . ان كاتبا له حساسية " وليامز " وعاطفته لايستطيع أن يرى العالم مجزأ . العالم وطن واحد يسكنه أناس مثل " وليامز " لهم فضائلهم ولهم شرورهم . وهذه ، مجتمعة تجعلهم قابلين للتسامي الى درجة القداسة وفي آن معا تجعلهم قابلين للسقوط في الخطيئة ، وتيسّر عملية ايذائهم وتصيّرهم ـ بالنتيجة ـ ضحايا لأنفسهم وللآخرين وللنظم الاجتماعية التي يعيشون ضمنها .

في مسرحيته عربة شارع تدعى الرغبة ، يعالج "تنسي وليامز " واحدا من أكثر المواضيع أهمية وانتشارا ، ليس في الأدب الحديث وحده بل في الحياة المعاصرة ونعني به : تجربة التغير أو الصراع بين الحاضر والماضي . يحدث هذا الصراع في المسرحية على أرض أمريكية بين شخصيات امريكية وفي مدينة " نيو أورليانز" وعلى وجه التحديد بين " بلانش " و" ستانلي ". و " بلانش " انثى فائقة الحساسية ، تعيش على الحنين والأحلام ، تلاشت قوتها مع المزرعة التي فقدتها . والوسيلة الرئيسية التي تساعد " بلانش " على البقاء هي الحنين وعندما يفقد الحنين تأثيره تنسحب الى جو آخر هو الجنون . أما " ستانلي " القطب المضاد في الصراع ، فرجل بدائي الطباع تنحصر اهتماماته ، على عكس " بلانش " تماما في الحاضر . وغاية أمانيه ممارسة السيادة بين أصدقائه ، والجنس مع زوجته ، وتناول الكحول بكميات كبيرة . وفي المسرحية شخصية ثالثة من المهم التعرف عليها . هذه الشخصية هي : " ستيلا " أخت " بلانش " وزوجة "ستانلي" " ستيلا " هذه سيدة تعي طرفي الصراع تماما فقد جربت عالم الماضي الذي تمثله أختها وهي تعيش في عالم الحاضر الذي يمثله زوجها . تعرف ستيلا الكثير

عن عالم الشهرة والكياسة والتقاليد والغنى ، كما تدرك من جهة أخرى أهمية العلاقة الجسدية وقوة تأثيرها . ومن المهم أن نلاحظ أن "تنسي وليامز" في مسرحية عربة شارع تدعى الرغبة يظهر لنا من خلال الشخصيات الثلاث مقترحا احتمالات معينة الشخصيته . يقرن " وليامز نفسه بـ " ستانلي " الفخور بانتمائه الامريكي الخالص والذي رفض مثالية الماضي واعتنق مادية الحاضر مبدأ . كما يقرن نفسه بـ" بلانش " التي رفضت قيم الحياة المعاصرة ، ولجأت الى الأحلام بأمريكا قديمة ، وتقاليد لطيفة ، ومزارع منمقة ، وجنة مفقودة لاتمكن استعادتها . ويمكننا أن نرى " وليامز " ، أخيرا ، في شخصية " ستيلا " التي لاتستطيع تحمل نتائج التزامها بحقيقة الواقع الحاضر ، التزام يقسرها على اخفاء تعلق خفي لكنه تعلق قوي وعميق بسحر القديم ورومانتيكيته . نسمع أصوات هذه الشخصيات الثلاث ، بلسان " وليامز" في مسرحيات كثيرة قبل مسرحية عربة شارع تدعى الرغبة وبعدها ، ولكنه للمرة الوحيدة يؤالف بينها جميعا في مسرحية عربة شارع ، وبعد هذه المسرحية تمر بتحولات معقدة في أثناء معالجة وليامز لتجارب التغير داخل امريكا . ومن هنا تحتفظ مسرحية عربة شارع تدعى الرغبة بأهميتها وتبقى اروع ما كتبه " تنسي وليامز " .

تُمثل " بلانش " ، على المستوى الرمزي ، ارستقراطية الجنوب الامريكي بينما يمثل " ستانلي " فقير المدينة المهاجر وماديته . فالفراء والثياب الحريرية والطبيعة الحالمة التي تتميز بها بلانش تقنع شخصية محطمة . والحماس والعجب والبنية الجسدية والطبيعة المنفتحة المواجهة التي يتصف بها " ستانلي " تخفي شخصية طفولية ضعيفة وعاجزة . ارستقراطية الجنوب كما تقدمها المسرحية ، بناء هش مرفوع على أساس عميق متفكك ، أما مادية المدينة فبناء هائل مقام على أساس واه سطحي .

وعلى مستوى آخر من التفسير، نرى أن القيم التي يمثلها كل من "ستانلي "و" بلانش" هي قيم نظامين اجتماعيين خبرهما " تنسي وليامز " خبرة كافية ، فارستقراطية " بلانش " هي الرأسمالية المتفسخة . وطبيعة " ستانلي" المتعلقة بحياة البروليتاريا طبيعة ثورية في حزمها وسلطوية دكتاتورية في حدتها وانفعالها . " فستانلي " يفرض نفسه على " ستيلا " زوجته ، ثم لايلبث أن يدعي أنه أنقذها من سجن الأعمدة العالية البيضاء في مزرعة أهلها في ريف الجنوب . وستانلي يفرض نفسه أيضا على أصدقائه وبخاصة " ميتش " ويمنعه في احدى مراحل تطور المسرحية من الاستمرار في علاقته الغرامية مع " بلانش " . فعلى الرغم من أن " ميتش" يبدي أسفه العميق قبيل نهاية المسرحية ، الا أنه يقبل الاتهامات التي يوجهها " ستانلي " ضد " بلانش . أما "ستيلا" فلا يبدو أنها تمتلك رأيا واضحا خلال المسرحية كلها ، وفي كثير من المواقف تصل حياتها في البيت مع " ستانلي" الى درجة الموت الروحي . " فستانلي" حاكم مستبد ، و" ستيلا " خادمة تتلقى الأوامر . " ستانلي " هو الذي يصدر الأوامر ، وعلى " ستيلا " أن تطيع . أما الكاتب ، " وليامز " فغير راغب في أن يفرض من خلال معالجته لهذه

الشخصيات انتصارا لذبالة المحتد المزيفة ، أو لغوغائيّه الشارع ، لكنه يؤكد المواجهة بين الطرفين ، وحتميتها وعندما تصل المواجهة الى ذروتها تكون سريعة وهمجية . تستنجد " بلانش " بحليف وهمي نسجته من خيالها المريض، ويغتصبها " ستانلي " مرتديا رداء نومه الحريري :

بلانش : دعني أمر

ستانلي : عندما يرن جرس الهاتف ويقول المتحدث لي :

لقد ولدت زوجتك طفلا ، سأمزق
هذا الرداء الحريري وأُلوّحه
مثل راية (١)

يتفل" ستانلي"هنا بسقوط " بلانش" وبولادة طفل . يتلاءم الاحتفال الاول وطبيعة " ستانلي " فهو من تخطيطه وصنعه حتما . ولكن الاحتفال الآخر، الاحتفال بولادة طفل أكثر غموضا. أعتقد أن ولادة طفل جديد ،يمثل في ذهن"وليامز" النقطة الحيوية والحاسمة في المسرحية تماما كما يمثل اغتصاب " بلانش " مرحلة حاسمة في حياتها .

يرفض " وليامز " مع هذا الخلق الجديد ـ ولادة طفل ـ الاقطاع والدكتاتورية معا ويعطي الفرصة لظهور جيل جديد في أثناء صراعهما الحاد. لكن حدوث الولادة في المستشفى لايخلو من معنى ضمني . ترى أليس " وليامز" واثقا من مصير هذا الجيل ؟ فالطفل مثل أمه يمكن أن يقاد الى سجن . ويمكن أن يستعبد . ويمكن أن يولد مريضا ، ويتطلب على الدوام العناية الصحية والعلاج . لايحاول " وليامز " أن يعطينا مزيدا من التفاصيل سواء بالشكل الصريح أو حتى على المستوى الرمزي ، ذلك لأن " وليامز " لايكتب من خلال التزام واضح بقضية ، ولا من خلال ايديولوجية واضحة (٢)، فهو لايتنبأ بنهاية الصراع مع ولادة الطفل . ومسرحية عربة شارع ترينا بوضوح أن التناقض في الصراع ينشأ من مواقع فردية وليس من مطلق مجرد لماض أو لحاضر . فالقطبان هدف للنقد والهجوم والمراقبة ، نظرا لأن صراعهما فردي . والقطبان ، كلاهما يجب أن يتغير . ومع ذلك فاللعبة ، في مسرحية عربة شارع ، لاتنتهي. وذلك لأن تجربة التغير مستمرة .

تشترك المسرحيات ذات الفصل الواحد جميعها والتي كتبها " وليامز " قبل عربة شارع في فكرة رئيسية هي : الحنين الى الماضي . وهذا الحنين ، على وجه العموم ، حلم عن عصر ذهبي كان يمثل حقيقة في الماضي ، لكنه فقد في العصر الحاضر ، ولم يعثر على بديله أبدا. ومن الواضح أن " وليامز " يرى الماضي وهو يذبل ، ويُستبدل ، هشاً هشاشةَ الشخصيات التي تستحضر ذكرياته . هذه الشخصيات التي تقودها أوهامها ، تلهج بالحب لتقاليد قديمة ، ولإحساس بالكرامة والتقدير تعتقد أنها لم تعد موجودة في الحياة المعاصرة . لقد جرد الحاضر هذه الشخصيات من كل ماكانت تعتبره هاما وضروريا لبقائها . ولأن هذه الشخصيات أضحت عاجزة عن التعود على مطالب الحاضر المتغيرة ، فقد رفضته وانسحبت من الصراع في سبيل البقاء. ويضفي الانسحاب على الشخصيات التي يقدمها " وليامز " نوعا من الرقة والرهافة . وتعرض المسرحيات هذه الشخصيات ليس في حالة عصيان وتمرد ولكن في حالة انسحاق انساني تام . فنرى شخصيات عاجزة عن الثورة والرفض ،صيرها عجزها عن تحقيق التوافق بين رغباتها

الذاتية وبين أوضاع حياتها في حالة مرض جسدي وذهني ، يستحيل عليها امتلاك الارادة لتغيير الأشياء أو حتى لقبولها . وهنا تظهر دراية " وليامز" ومعرفته بتقاليد الجنوب الامريكي وما تعنيه بالنسبة للجنوبي ، فهو يكتشف في كل ما يكتبه ذهن الجنوبي الأسير بين ماض مثالي وحاضر مكروه . فكثير من الشخصيات التي يقدمها " وليامز" قد وصلت نقطة النهاية وعجزت عن تمثل قيم العصر الحاضر ، وعن استعادة قيمها القديمة من الماضي ، فوقعت أسيرة لأوهامها وأحلامها ولحالات ذهنية مرضية . هذه الشخصيات الغريبة في وطنها ،تسترجع أشكال وجوه كانت تعرفها ، ومنازل كانت تسكنها وطرقات كانت تسير عليها وأصدقاء كانوا في الماضي ، وتقاليد من النبالة كانت بالنسبة اليها المثل الأعلى .

في مسرحية عربة شارع يكتسي الشبح المجرد الذي يهدد حياة الشخصيات الهشة ، الحساسة والمريضة ذهنيا التي ظهرت في المسرحيات ذات الفصل الواحد يكتسي هذا الشبح لحما ويمتلىء حياة ويظهر بشخصية " ستانلي " ومن مقولة الصراع بين الحاضر والماضي ، بين الحقيقة والحلم وبين التمسك بالمادة والتعلق بالروح ينطلق " وليامز" الى بحث الصراع الاجتماعي داخل وطنه ، امريكا .

بعد سلسلة طويلة من الضغوط التي يمارسها " ستانلي ضد " بلانش " في مسرحية عربة شارع ، يتوّجها موقف الاغتصاب الجسدي قبيل نهاية المسرحية هذا الموقف الذي يعجل المسرحية للوصول بـ"بلانش " الى نقطة النهاية ، لاتمتلك معها الا أن تعبر عن ألمها الدفين وعن غربتها عن العالم الذي تعيش فيه ، حتى في منزل أختها . هذه الغربة ترد الى غربة أخرى أوسع نطاقا وأبعد مدى، هي غربة الانسان في امريكا المعاصرة ونسمع رنة أمل جريحة في صوت " بلانش " المبحوح وهي تخاطب الطبيب الذي يقتادها الى المصح العقلي ، آملة أن تجد فيه ملجأ أكثر هدوءا وأمنا من العالم الصاخب الذي تتركه ، وربما تجد فيه حرارة انسانية تدفىء صقيع قلبها وتسندها قبل أن تتهاوى في عالم " ستانلي الى الأبد :

بلانش : قل للممرضة أن تتركني.وشأني.. كائنا من تكون . لقد اعتمدت دائما على لطف الغرباء (٣).

ليس من حلول لهذه المشكلة التي يبرزها " وليامز " في المجتمع الامريكي والتي تصل الى حد " اللاانسانية " عندما يتجاهل الناس بعضهم في المجتمع الواحد بشكل نهائي ، ويدفعون بعضهم الى دخول المصحة العقلية .

وفي مسرحية أخرى كتبها " وليامز" عام ١٩٥٣ وهي الدرب ، نلتقي مع شخصيات تمثل مراحل مختلفة من تاريخ بعضه حقيقي وبعضه الآخر مجرد تصور من خلال حلم " دون كيشوت ". ومن بين هذه الشخصيات نرى " بايرون "و"كازانوفا" وربما كان مايراه " دون كيشوت " في حلمه أشد مرارة مما يراه في الواقع الذي يهرب منه الى أحلامه . لقد أصبح البشر ، بالنسبة الى " كازانوفا " وحوشا وبرابرة . يستطيع انسان ، على سبيل المثال ، أن ينتزع قلب انسان آخر ، ويثنيه بين أصابعه ، ويمزقه ثم يدوس عليه بقدميه ويرفسه بعيدا" . واحساس " كازانوفا " هذا بتغير الانسان يجد صدى لدى " بايرون"الشاعر :

بايرون : هذا صحيح ياسنيور. ولكن مهنة الشاعر التي كانت في الماضي مهنتي ، هي التأثير على القلب بصورة أكثر لطفا. كان على الشاعر أن يطهر القلب ويرفعه عن مستواه العادي . وهل القلب سوى نوع من – نوع من الآلة التي تترجم الضجيج الى موسيقى ، والفوضى الى نظام – نظام غامض .

تلك كانت مهنتي ، يوما ، قبل أن يعتمها حماس المصفقين السوقي . وشيئا فشيئا فقدت مهنتي بين قوارب البندقية وساحاتها العامة ، في الحفلات الراقصة المقنعة ، والصالونات المتلألئة ، والباحات الواسعة الظليلة ، والمداخل المضاءة بالمصابيح ، وبين المظاهر الباروكية الكاذبة وبين الظل والسجاد والشمعدانات والصواني الذهبية وبين الدمقس الثلجي والسيدات اللواتي أعناقهن أكثر نعومة ورشاقة من سوق الورد المنحنيات علي بأنفاسهن المعطرة ، كاشفات صدورهن هامسات ، بابتسامة غير كاملة .. هناك رغبة جامحة للانحدار في هذا العالم .(٤).

اذا كان " بايرون " يتحدث باسم " تنسي وليامز " هنا ، وهذا محتمل ،"فتنسي وليامز " يعطينا من خلال حديث " بايرون " صورة لما تفعله الثروة المادية ليس للفنان الشاعر وحسب ، بل لمثل الماضي الرفيعة . انها تشوه كل شيء في نظر " بايرون " وتجعله مزيفا . كل شيء يفقد أصالته ويصبح صنعيا وتافها :

وجدت نفسي مؤخرا أصغي لموسيقيين بالأجرة ، خلف صفوف من أشجار النخيل الاصطناعية بدلا من رنة قلي الصافية(٥).

بامكاننا أن نعتبر الدرب امتدادا لعربة شارع ، غير أن المادية في الدرب تأخذ وجها أكثر بشاعة ، وتغلب فيها رغبة جمع المال على أية رغبة انسانية أخرى،في الدرب تصبح النقود المقياس الخلقي الذي ينظر الناس من خلاله ، وبهذا المقياس يتم تقييم الناس واحترامهم ، يكبر الطفل الذي ولد في عربة شارع ويصبح شابا اسمه " كيلروي " في الدرب . يجد " كيلروي" نفسه في عالم مشوش من العنف غير المبرر حيث قوة المال هي الحاكم الوحيد . وتبرز شخصية " غوتمان " صاحب فندق " سيت ماريز " في " البلازا " رمزا لقوة المال فسلطة " غوتمان " هي قوة المال وسيطرته. والقانون بالنسبة اليه هو العرض والطلب يعيش الانسان في مدينة " البلازا "خائفا من نفسه ، ومن نبضات قلبه ومن أنفاسه لنسمع احدى الشخصيات تفصح عن ألم المقهورين :

هل أصابكم الارتباك ، هل تعبتم وارتبكتم ؟ هل أصابتكم الحمى؟ هل تشعرون في ذواتكم العجز عن مواجهة عصر تفجير الذرة؟ هل تشكون بالصحف ، والحكومات هل وصلتم الى مكان على الدرب العالي حيث تنتصب الجدران أمام أعينكم بدلا من أن تنفتح على المدى ؟ هل يبدو التقدم مستحيلا بعد هذا التقدم ؟ هل أنتم

خائفون من شيء ؟
هل أنتم خائفون من نبضات قلوبكم ؟
أو من أعين الغرباء ؟ هل أنتم
خائفون اذا تنفستم ؟ أو اذا لم
تتنفسوا ؟ هل تريدون أن تعود
الأشياء الى استقامتها وبساطتها
أيام كنتم أطفالا ؟
هل تريدون العودة مرة ثانية الى
رياض الأطفال ؟ .(٦)

في ظل هذا الوضع القائم في مدينة " البلازا " ،التي يمكن أن تكون أية مدينة في أمريكا تضيع القيم ، ويرفض الحب ويداس الفنان الشاعر ويستحيل تصحيح الأوضاع الانسانية ولا يجد الانسان موطئا لقدمه . ونسمع " كيلروي"يهمس وهو يترنح ألما :

دعني أفكر قليلا . أرى نفسي
تواجهني مشاكل ثلاث :
أولها : أنني جائع . وثانيها :
أنني وحيد . وثالثها : أنني في
مكان لا أعرفه ولا أعرف كيف وصلت
اليه .(٧)

يتحدث " كيلروي " هنا باسم جميع الجياع ، والغرباء والضائعين في العالم وهم يشهدون الفساد وقد استشرى في مجتمعاتهم . وهو يتحدث أيضا عن خيبة الأمل الكبيرة في"الحلم الأمريكي" ذاته ، الذي كان يرنو الى خلق انسان كريم يعيش في ظل العدالة والحرية والمساواة . " وكيلروي " يتحدث باسم الفرد وعن طبيعة الصبر والاحتمال في أعماقه . فمسرحية الدرب من هذا المنظور ادانة ليس للمجتمع الأمريكي وحسب ، بل تحديد واضح لسخف العلاقات الانسانية وشذوذها في العالم ، اضافة الى أنها تقدم شخصية " كيلروي " التي وصلت الى نهاية الدرب العالي هربا من جحيم الحياة المادية وشرورها في أمريكا .

علينا أن نتذكر دائما الأبعاد الثلاثة التي يؤكد عليها " وليامز" في أعماله : البعد الفردي أو الذاتي ، والبعد الوطني أو الأمريكي والبعد العالمي أو الانساني . يقول " وليامز " في احدى المقابلات التي أجريت معه :

ان الحاجة الصارخة لجهد انساني كبير من أجل التعرف على أنفسنا وعلى الآخرين بصورة أفضل ضرورية لنا كي ندرك أنه ليس لانسان سلطان على الحق أو الفضيلة الا بقدر ما تثبت قدماه على الثنائية الخداعة ، وعلى الرذيلة والشر . لو بدأ الناس بهذه الحقيقة الظاهرة للعيان ، اذن لعرفنا جميعا ، شعوبا وأمما وأجناسا ، كيف نجنب العالم الوقوع في شرك الفساد الذي اخترته عارفا وقاصدا ، موضوعا رئيسيا لمجمل أعمالي المسرحية (٨).

ليس العالم الذي يعيش فيه " وليامز" عالم النظام والعقلانية والمعنى . انه عالم معقد متشابك ومجزأ ، انه "ورقة تقرأ من النهاية الى البداية"، انه عالم فوضوي تجذر فيه الفساد والانحلال. والشخصية التي يقدمها " وليامز " ليس لها سند مقدس اذا استثنينا كونها شخصية انسانية غامضة . انها ليست شخصية البطل أو الشرير . لكنها كما يقدمها " وليامز " تملك الحق في تحمل مسؤولية خلق القيمة الخلقية ورفضها وسط صخب العالم وعنفه . يقول القس" شانون " في مسرحية ليل السحلية ، في حديث مع شخصية أخرى اسمها " حنة " موضحا موقفه من العالم الذي يعيش فيه :

شانون : لاتكوني ناقدة قاسية . عندما يضنيك الجوع فستأكلين السحلية

ستدهشين لو قلت لك ما يأكل البشر عندما يجوعون . لايزال هناك الكثير من الجياع في هذا العالم . لقد مات الكثيرون جوعا ولكن الكثيرين لايزالون أحياء ولكنهم جياع .. عندما كنت مسؤولا عن رحلة للسيدات في بلد لا اسم له لكنه موجود في هذا العالم ، مررنا على أحد الشواطىء بمجموعة بشرية هائلة . تبينت بعد فترة أنهم كانوا يتزاحمون على كومة من روث الحيوانات . واسترعى انتباهي بشكل خاص ، شخصان عاريان تماما الا من رقع بالية تخفي من جسميهما أجزاء بسيطة كانا يزحفان على تلك الكومة . كان الواحد منهما يأخذ شيئا منها ويضعه في فمه ، ثم يلوكه ، ويبصقه بعد فترة . (يتابع شانون متحدثا مع نفسه) لماذا قلت لها ذلك ؟ قلته لأنه صحيح أجل انه صحيح . واعتقد أنني من أول من واجهه في ذلك البلد الذي لا اسم له (٩).

هذا البلد ، كما تشير اليه المسرحية في بدايتها ، هو وطن " تنسي وليامز " ، أمريكا في كثير من مسرحيات " وليامز " تأخذ صورة أكثر قتامة ، وتظهر مكانا للاقامة الجبرية ، ورمزا للسجن ، وموطنا للجوع بمختلف مظاهره وأكثر الصور بروزا هي الصورة التي تظهر في مسرحية صيف ودخان وتدعوها " ألما " الشخصية الرئيسية في المسرحية ، بيتا للمجانين حيث "يغتصب المجتمع الفرد" ، كلما ازداد الوطن ضيقا ، ازدادت المعالم التي يرسمها " وليامز " دقة وتركيزا ، وتعددت الشخصيات التي تمر بحالات من اليأس والألم ، تعكس الخيبة و ضياع القيم الضرورية للحياة الانسانية . نلتقي في مسرحية أو أخرى بشخصية تحن لعودة الماضي الأمريكي ، والطبيعة الأمريكية ولكنها أشياء صارت موجودة في الحلم وليس في الواقع . وعلى الرغم من كونها أحلاما فان " وليامز " يعيد بعثها بقالب مسرحي من فترة الى أخرى ، بصورة تجعلنا نعيش التجربة ونفهم أهمية علاقة الحب التي تربطه بالماضي وقيمه .

ومع بداية الستينات من هذا القرن نرى موضوعات وليامز التي تعرفنا عليها في مسرحياته تزداد عمقا ، وحدة فتتزايد صورة الوطن تفسخا وانحلالا ونرى المجتمع الأمريكي يزداد تفككا وفوضى ، كما يقدمه " وليامز " في مجمل أعماله الأدبية واذا أمريكا ، الوطن كما يرد على لسان احدى الشخصيات الرئيسة في قصة : البحث الفروسي :

أمريكا ، وبخاصة الولايات الجنوبية ، ليست سوى تجسيد لما هو أساساً حركة رومانتيكية . لقد اكتشفت ، وأست في فيض انساني من قبل دون كيشوت الأبدي . وبعد ذلك ، كان من الطبيعي أن يأخذ رجال الأعمال دور دون كيشوت وتحول دون كيشوت الى منفي في وطنه ... ولكن المنفى لايطفيء نار روحه المتوقدة .. انه يستطيع أن يحدثك بحكمة بالغة عن طرق العالم التي سلكها في أثناء بحثه الفروسي ... لايستطيع التفاهم مع رجال الشرطة فهو أمريكي زيادة عن اللزوم . رجال الشرطة عندنا يستطيعون التفاهم مع الناس المزيفين ، ومع الذين فقدوا

الروح وتحطموا على عجلات أوروبا القديمة . كيشوت دي لامانش لم ينهزم أبدا ولم يتحطم فعموده الفقري الطويل مرن جدا ونابض الحركة . يكمن أملنا في حقيقة أن جمهورنا يحبه بشكل غريزي ، وانه يقوم بدور السياسي الناجح . أما الخطر فيكمن في حقيقة أنه يفقد صبره . لقد بنيت أمريكا من الجنوب بواسطة رجال اعتقدوا أنفسهم أرفع من الجمهور، وتجاهلوا فظاعة الموت ، ولاحظوا جيدا المعاجز غير أنهم لم يحسوا بالصغار إزاءها : ولم يتوقفوا يوما للامعان بتفاهة احلامهم وبالتالي فقد ترجموا هذه الأحلام الى أفعال . وهكذا يسافر كيشوت ، بشكل أبدي على هذه الدروب الوعرة المنحدرة والعاصفة مدرعا بسلاحه الصدىء ممتطيا صهوة جواده الذي تقوست أضلاعه كأضلاع فارسه . ويتعثر " سانشوبانزا " ، حاملا الأعتدة اللازمة للفارس ، وربما كان في هذه المرة ، أكثر جنونا من سيده القديم .(١٠).

لايخطىء المرء عندما يطلع على مايكتبه " وليامز " أن يرى هذه الثنائية في أعماق " وليامز " ذاته أو أن يرى الموقف المماثل الذي اتخذه " سترندبيرغ " في حياته وفي أدبه معا ، ذلك الموقف الثنائي من حب ذاته وكرهها ، ووطنه والأرض جميعا، حيث يصبح البحث عن البقاء محور أعماله جميعا ، ويتراوح هذا البحث بين أمريكا والعالم خارج أمريكا، وداخل أعماقه وأمريكا ، مشكلا بحثا غامضا لكنه جاد ، عن التوحد الانساني . كما يلاحظ الذين يتابعون ما يكتبه " وليامز" أن العالم الذي يقدمه في الفترة الأخيرة يخلو من قوة قدسية يتعلق بها الانسان ويرنو اليها وقت الضيق، فيستعيض " وليامز " عن هذه القوة القدسية العلوية بدعوة صريحة للانسان كي يزداد قربا من أخيه الانسان .

في المقطع التالي نرى فعلا بوضوح جانبا مهما من جوانب فكر " وليامز" وفلسفته ينسحب ليس فقط على شخصية شانون رجل الدين في مسرحية ليل السحلية بل على الانسان الأمريكي المعاصر الذي يشعر بوطأة الممارسات الدينية في أمريكا :

> كل دياناتكم الغربية ، وكل الميثولوجيا المتصلة بها ،مبنية على مفهوم الاله خرفا ومعوقا أقسم بالله أنني لن أقوم بعد اليوم ، وانني لا أستطيع بعد اليوم أن أؤدي صلاة أو عبادةللاثناء على ... أو عبادة هذا .....هذا الـ ... هذا ... (١١).

ان ما يحتاجه الانسان في أمريكا التي انتفت منها القيم الروحية ، هو كما يقول " وليامز " شيء مختلف تماما لنستمع الى هذا الحوار بين الشخصيتين الرئيسيتين في مسرحية ليل السحلية :

حنه : ليس الكحول مشكلتك ياسيد شانون .

شانون: ماهي مشكلتي اذن يا آنسة جينكز ؟

حنه : انها أقدم مشكلة في العالم- هي الحاجة الى أن تؤمن بشيء أو بشخص .. أي شخص ، أو أي شيء، شيء ما .

شانون : مثل ماذا ... الله ؟

حنه : لا

شانون : ماذا ؟

حنه : الأبواب المكسورة بين الناس كي يستطيعوا التواصل من خلالها ، حتى ولو لليلة واحدة فقط .

ليلة واحدة .. التواصل بين الناس ، على شرفة ، خارج زنزاناتهم ، ياسيد شانون .

شانون : لاتعنين الاتصال الجسدي ، هل تقصدين ذلك ؟

حنه : كلا

ما أقصده هو قليل من التفاهم والفهم المتبادل بينهم ، ما أقصده هو الرغبة في مدّ يد العون لبعضهم ، في ليال حالكة كهذه الليلة . (١٢)

أغلب الشخصيات التي يقدمها " وليامز " ان لم تكن جميعها شخصيات " لا منتمية " لاتشدها رابطة ، فهي في الغالب شخصيات تثير العطف ، ومخلوقات عاجزة ، تحتاج كثيرا من الرفق والحب ولكنها جميعا قد أسيء فهمها ، فنظر اليها المجتمع على أساس أنها مخلوقات مثيرة للشغب وناشزة . ويحاول" وليامز" أن يقول لنا الحقيقة عن هؤلاء الناس الذين فشلوا في خلق علاقات هادفة ذات معنى بين بعضهم . ولكنهم فشلوا ليس لأنهم لايريدون ذلك ، بل لأنهم لايستطيعون ذلك . لقد صيرهم عدم انتمائهم عاجزين عن التفكير في حدود أكثر بعدا من حدود البحث عن البقاء ، تعيش هذه الشخصيات في أجواء تعبق برائحة المرض وتقدمها المسرحيات والقصص القصيرة بقالب يدل على الانسلاخ والوحدة ، ويعكس قلقا غامضا وصراعا داخليا يفسره الفساد الشامل في المجتمع ، ويتضح ذلك في التقرير التالي الذي يدلي به " براون " في قصة البحث الفروسي .

لايدخل أحد الى هذه المدينة ، حتى لو كان أخي ، دون أن تتم معرفته ومراقبته وتصنيفه من قبل جهاز الأمن في المشروع . ما أعنيه هو أن كل الأشخاص وجميع النماذج التي تأتي الى هنا تصنف من قبل الجهاز الأوتوماتيكي تحت ثلاثة تصنيفات ، " جيد " و " مريب و " سيء " يتحرى الجهاز الاوتوماتيكي كل قادم مرة ، ومرتين وثلاثا ، سواء أتى الى هذا المكان أو الى مكان آخر قريب من هذا المكان ... لقد صدرت قوانين جديدة بسرعة فائقة لعزل كل القادمين الجدد الذين لايناسبون هذا المكان ، وتلك الكلمة ، " العزلة" ، يمكن أن تعني عدة أشياء ، وليس أي من هذه المعاني سارا للفرد المعزول، أيها الأمير (١٣) .

المدينة التي يتحدث عنها وليامز هي وطنه أمريكا ، والفرد الذي تتم مراقبته داخل مدينته ، هو " وليامز " ذاته ، وليامز الذي يتمثل المواطن الغريب عن وطنه وقد حمل عبء المواطنة صليبا على كتفيه ، ومشى بحثا عن قيم ضيعها الوطن فصادف غربة حينا ، وعزلة حينا آخر ، والتقى بنماذج غريبة حينا ، أو مؤذية أحيانا ، وغرق حتى أذنيه في مجتمع مريض ، ازداد انحلاله وتفسخه ، وانقطعت من بين أفراده ، عرا الحب والصداقة والوفاء واستبدلت بها الأفكار واللامبالاة والمصالح الرخيصة ، يقول الراوي في

رواية : موئيين وعالم العقل :

اعتقدت يامو كيين ، عندما أتيت الى هذه المدينة أن تقولي لي كلاما حلوا ولكنك ملأت كأسي بالسخف والمرض . طلبت الي أن أتحدث ، وها أنا أتحدث ،واذا كان ما أقوله لايروقك ، فالى الجحيم ، كل ما يروقك ويعجبك . فكل ما أستطيع أن أقدمه لك هو ملجأ موقت من عالم العقل الذي ستعودين اليه مع عشيقك صاحب الرقم ثلاثة ، والذي أسمع خطواته تقترب في هذه اللحظة .(١٤)

هذا هو العالم الذي يكتب عنه " تنسي وليامز " انه أمريكا المعاصرة وهذه هي الشخصية التي يكتب عنها " تنسي وليامز " انها الشخصية الأمريكية المعاصرة ، وهذا هو الموضوع الأكثر أهمية الذي يعرضه " تنسي وليامز " الموضوع هو الغربة المتزايدة للشخصية الأمريكية عن الأرض الأمريكية . يتجزأ المجتمع في أمريكا الى طبقتين: "القتلة والضحايا" . هكذا يرى الكاتب المسرحي ، وهذا هو ما يعالجه . والمسرح أكثر الفنون الأدبية التصاقا بالجماهير وحاجة اليها . واذا اعتبرنا أن الأدب . من احدى زواياه يؤرخ المرحلة التي يظهر فيها ، فاننا بالتالي نرى أن " تنسي وليامز " يؤرخ في مسرحه وفي قصصه القصيرة ، وفي روايته مرحلة من أدق المراحل التي تمر بها أمريكا . انها المرحلة التي تقطع فيها أمريكا ، السلطة ، علاقتها بالأرض وهي أيضا المرحلة التي يسقط فيها الأمريكي القاتل ، بشكل تام فيتجرد من الداخل من كل قيمه ، روحية ، وخلقية واجتماعية . أمريكا هذه تحولت في النصف الثاني من القرن العشرين الى " أمة من الغجر " . كما يقول عنها كاتب أمريكي آخر هو " فانس باكارد " ،وأ مريكا ، كما يراها " تنسي وليامز " ،قد تحولت في النصف الثاني من القرن العشرين الى أمة معادية للقيم والتقاليد التي كانت ، الى فترة قريبة ، أحلاما أمريكية يسعى المواطن الأمريكي الى تحقيقها .

يظهر هذا العالم في كثير من الحالات والمواقف التي يعرضها مسرح " وليامز " عالم العبث " واللاجدوى : عالم " اللامعنى " واليأس . لكن مسرح " تنسي وليامز " كما المسرح عموما يقوم على الصراع المستمر ، ولا يغيب هذا الصراع نهائيا عن كثير من مسرحياته . فالصراع بين القاتل والضحية ، بين الخير والشر ، بين الفضيلة والرزيلة ، بين الواقعي والرومانتيكي وبين القديم والجديد يتكرر من مسرحية الى أخرى ،ولكن النتيجة في كثير من مواقف الصراع ان لم تكن فيها جميعا ، ليست في صالح الضحية أو الخير أو الفضيلة . والعالم الذي تتم فيه المواجهة بين طرفي الصراع ، عالم قاتم ، ومظلم ومجهول ينتصر فيه الأقوى وينهزم الضعيف . ويبدو " وليامز " في مسرحياته عموما صريحا وثابت الرأي في ادانته لكثير من المؤسسات الأمريكية واعتبارها مسؤولة مباشرة عن البؤس الانساني الذي يعاني منه المواطن العادي في أمريكا .

تطرق بحثنا هذا لكاتب أمريكي " تنسي وليامز " اشتهر أدبه في الغرب والشرق على حد سواء بأنه أدب مسرحي يميل الى الاغراق في الذاتية ، وينحو مناحي جريئة في تفسير الأزمات الاجتماعية ، والنفسية ، والروحية

على أساس أنها جميعا قضايا تتعلق في الفرد ذاته ، دوافعا ورغبات وتصورات ضيقة تنبع من انعكاسات مغرقة في الذاتية ، وتفسر الى حد كبير شخصية الكاتب وحده ، بمعزل عن مجتمعه ، وبني جنسه . والغرض من هذا البحث الذي حاولنا أن يكون موجزا الى درجة معقولة أن نبين أن هذا الكاتب " تنسي وليامز " اضافة الى بعض الصحة في كل ما يزعم النقاد الذين تصدوا الى الخوض في دراسة أدبه المسرحي ، انما هو كاتب قريب كل القرب من المجتمع يحس بكثير من الاحترام والتقدير، بكل ما يحس به أفراد المجتمع من ضيق وضغط ، وضخامة أعباء تثقل الكواهل وتكاد تنوء بحملها ، فتجثم ، لتنال قسطا من الراحة ، وتنهض بعد ذلك تحاول الحركة الدائبة المستمرة بحثا عن طريق للخروج من فراغ عالم مغلق تقيده قوى خارجة عن قدرة الانسان حينا ، ومن صنع الانسان المضاد أحيانا أخرى . وبينهم كثير من النقاد - بشكل متسرع حينا وبمنطق شخصي أحيانا كثيرة - " وليامز " بأن ما كتبه كله انما هو انعكاس لشخصية مهزوزة عاشت في طفولتها وشبابها أمراضا كثيرة ، ويوردون الفقر والشذوذ والادمان وغيرها أمثلة يتصف بها معظم المبدعين ، وهي وان كانت في معظمها صحيحة ودقيقة الا أنها .. كما أراها لاتقلل من أهميته - ولا تشكل شرخا بينه وبين الانسانية والأخلاقية في أغلب الموضوعات التي عالجها . فليس هناك - على حد علمي - شخصية واحدة " لا أخلاقية " انتصرت في مسرحه ولم تحظ شخصية واحدة تمارس العنف والسادية والقهر الاجتماعي والانساني بمباركة " تنسي وليامز " - فمعظم شخصياته الرئيسية تنهزم أمام الأمل المفقود والعنف والموت عاجزة عن مواجهة الحقيقة .

ولد " تنسي وليامز " في مدينة كولومبس - مسيسيبي عام /١٩١١/ ،وتوفي في عام /١٩٨٣/ في احدى غرف فندق في نيويورك ، عاش فقيرا أغلب مراحل شبابه . تدرج في العمل بوظائف مهنية حتى مقتبل العمر - وكان في أثناء تلك الفترة ، يبحث عن مصدر آخر للرزق من خلال كتابة القصص القصيرة والمسرحية ذات الفصل الواحد في مجلات محلية . دخل الجامعة متأخرا ودرس المسرح نظريا وعمليا . واختار الكتابة بدلا من الوظيفة الأكاديمية بعد تخرجه . وكان قد نشر في تلك الفترة ، وفور انتهائها عدة مجموعات من المسرحيات ذات الفصل الواحد ، والقصص القصيرة . وفي عام /١٩٤٤/ مثلت على مسارح (برودواي) أول مسرحية طويلة له وهي " صراع الملائكة " ولاقت فشلا ذريعا بسبب تطرقها لمشاكل الدين ، وفضائح رجال الكنيسة في أمريكا وليس لأنها ذات مستوى فني متدن ، كما يدعي بعض النقاد ، فقد تحولت المسرحية ذاتها عام /١٩٥٤/ الى عنوان" اورفيوس هابطا " وبشيء من التعديل على المباشرة في النيل من الجوانب الدينية ، حققت نجاحا كبيرا على مسارح أمريكا وأوربا . ولكن المسرحية التي اشتهر من خلالها " تنسي وليامز " كانت بعنوان " الروابط العائلية الحساسة " وهي الترجمة التي اخترتها بديلا عما عرفت به : الحيوانات الزجاجية ، ذلك لأنه رغم أن الحيوانات الزجاجية في المسرحية رموز لهشاشة أفراد العائلة ، والعلاقات التي تربط بينهم ، الا أن الروابط العائلية هي الموضوع الرئيسي لهذه المسرحية .

عرضت مسرحية الروابط العائلية

الحساسة على مسارح أمريكا مرة /٧٦٥/ يوما متتاليا ، وكان رقما قياسيا في ذلك الحين ، وانتقلت المسرحية بعد ذلك الى عديد من عواصم العالم ، مثل لندن وباريس وموسكو وبون وبرلين والقاهرة ، ومثلت في أحد الأعوام على أحد مسارح دمشق باللغة العربية ولاقت في جميع تلك العواصم نجاحا منقطع النظير ، ويعود سبب النجاح هذا في الدرجة الأولى الى أن كل مجتمع رأى في المسرحية تعبيرا صادقا وأصيلا عن احدى الملامح الرئيسية للعلاقات العائلية المفرطة الحساسية التي تسود ذلك المجتمع.

ومن يذكر " اماندا " شخصية الأم في المسرحية ، يستطيع أن يرسم من خلالها ملامح واضحة لكل أم في الشرق تتمتع بدرجة كبيرة تصل الى حد المبالغة ، من الحب الممزوج برغبة الامتلاك وحب السيطرة والتوجيه الفوقي ، الممزوج بتجاهل جميع الظروف الموضوعية المتغيرة التي يمر بها أفراد العائلة ، ومن يذكر شخصية "توم" يتعرف من خلاله الى عدد كبير غير قابل للحصر من الشباب الذين يشعرون بكثير من التقدير والاحترام والحب لأمهاتهم ويضحون الى درجة كبيرة بمصالحهم وطموحاتهم ويخنقون رغباتهم في كثير من الأحيان من أجل ارضاء السيدة الوالدة التي تمثل لهم سر الألوهية على الأرض ، لكنهم يصلون في لحظة انفعال لايستطيعون ازاءها الا الثورة على علاقتهم مع أمهم ، فيخرجون من البيت تاركين فيه خيطا رفيعا ، يربطهم بشكل مقدس ، ويشدهم بعنف الى العودة دوما الى أمهم ، لتقبيل التراب من تحت قدميها ، لكن " توم " لايعود في المسرحية ، بل يترك مع أمه أختا ، هي " لورا " وذكرى لاتمحوها الأيام ،ولا يمحوها ترحاله وابحاره في المحيطات على ظهر القوارب والسفن بل تزداد عمقا وتركيزا في ذهنه ، يوما بعد يوم .

ومن منا لايذكر مسرحية " عربة شارع تدعى الرغبة " التي أود ترجمتها الى " البحث عن البقاء " وذلك لأنني أرى في عنوان المسرحية الذي جاء في الانكليزية " عربة شارع تدعى الرغبة" انعكاسا حقيقيا للحالة النفسية والاجتماعية والاقتصادية التي تمر بها الشخصية الرئيسية في المسرحية ،" بلانش " والتي يسودها طابع البحث المتواصل عن طريقة للاستمرار بعد أن انقطعت بها السبل وأرتجت في وجهها أقفال الأبواب التي بلغت درجة كبيرة من الكثافة يصعب معها الولوج الى حيث تسطع الشمس ، وينتشر الضياء ، وتستحيل العودة الى الصبا المتألق في أجواء الحلم الأمريكي المفقود .

هوامش البحث

١- مشهد ١٠ ص٢١١ عربة شارع تدعى الرغبة .

٢- لابد من ذكر الملاحظتين التاليتين عن هذه النقطة :

أ- لم ينتم " وليامز " يوما لأي حزب يساري - ماركسي رغم الانتشار الواسع لهذه الاتجاهات في أمريكا في الأربعينات والخمسينات من هذا القرن . وهي الفترة الأكثر غنى في مسرحه ، ومن هذه الزاوية نقرن ما حدث في أوربا الشرقية وحتى في الاتحاد السوفيتي في عام (١٩٨٩) على المستويين السياسي والاجتماعي .

ب- في الفترة ذاتها التي كتب فيها مسرحية عربة شارع تدعى الرغبة كان " البير كامو " المفكر والفيلسوف الكبير يقدم الاحتجاج تلو الآخر ضد النازية وممارساتها وفي الخمسينات يرفض تأييد فرنسا وسياستها في الجزائر بل ويستنكرها . " وكامو" انتمى فعلا الى الماركسية والشيوعية والتزم بمبادئها فترة من الزمن ثم أعلن انسحابه . ونقاط التلاقي لاتخفى على دارس الأدب . فليس من بين شخصيات وليامز شخصية واحدة اختارت الثورة والتمرد طريقا لحل أزمتها ، بل كان الطريق أمامها هو الاغراق في الذاتية والعودة الى الحلم الشخصي على الرغم من كل ادانته للبورجوازية واعتباره لها مسؤولة عن التخلف وادانته لسيطرة رأس المال واعتباره مسؤولا عن كثير من الشرور الانسانية .

٣- مشهد/١١ / ص ٢٢٥ عربة شارع .

٤- ص ١٧٨ - ١٧٩ الدرب

٥- ص ١٧٩ - الدرب

٦- ص ١٤٥ - الدرب

٧- ص ١٤٧ - الدرب

٨- نشرت فقرات من المقابلة مع وليامز في مجلة " المسرح الحديث عام ١٩٦٤ - ص١٩١ .

٩- ص١١١ - ١١٢ ليل السحلية

١٠- ص١٨ - ٨٣ البحث الغروسي - قصة قصيرة . -

١١- ص ٥٢ ليل السحلية

١٢- ص ٩٦ ليل السحلية

١٣- ص ٣٥ - ٣٦ البحث الغروسي

١٤- ص١٨١ موئيز وعالم العقل - رواية

ملاحظة :

ترجمت المقتطفات جميعها من مسرحيات وليامز

BIBLIOGRAPHY

WORKS BY TENNESSEE WILLIAMS:

CAMINO REAL, Penguin Books; 1968.

THE CLASS MENAGERIE, Penguin Books; 1973.

THE NIGHT OF THE IGUANA, Penguin Books; 1968.

A STREETCAR NAMED DESIRE, Socker and Warburg; London, 1956.

MOISE AND THE WORLD OF REASON: W.H. ALLEN: London, 1976.

THE KNIGHTLY QUEST, New Directions, 1966.

IN THE WINTER OF CITIES, New Directions; 1964.

BOOKS:

Bigsby, C.W.; Confrontations and Commitment, London, 1967.

Brustein, Robert; The Third Theatre, London, 1970.

Fromm, Erich, Man For Himself - An Enquiry into the Psychology of Ethics; Routledge & Kegan Paul Ltd, London, 1950.

THESIS:

Al-Khayer, Mahmoud, TENNESSEE WILLIAMS: THE SEARCH FOR SURVIVAL EXETER UNIVERSITY. 1977.